

أما أن يلحق بهم غيرهم ويضاهي بهم، مما تقع عليه العينان من صامت وناطق فيعز وجوده كما ورد في هذه الأبيات:

كأن ثَبِيرًا في عرّابين وبِلَلٍّ كبير أناس في بَرَجَادٍ مزمّـلٍ
وعجّاءٌ دفت بالجناح كأنها مع الصبح شيخٌ في بجاد مقنعٌ
تراهن خَلَفَ القوم خُزْرًا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
يحسبه الجاهلُ ما لم يعلمًا شيخا على كرسيه معمما
كأن حرباءها في كل هاجرة ذو شيبة من رجال الهند مصلوب
لما أبدعت من التشبيه بهم، وإذا ما نقبنا عن تمثيل على غرارها، فقلما نعثر على تعزيزها
بسادس مثلا إلا بعد جهد جهيد.

فليس مقبولا أن يضم إليها مثلا تشبيه الناقه بالإمام تقدمت المطايا مصفوفة وراءها صف
المأمومين في قول أبي نواس الحكمي من مدحه للخليفة الأمين:
تذرُ المطيَّـ وراءها فكأنها صف تقدمُ هُنَّ وهي إمام
وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام (1)
فإنه إنما عنى مماثلتها للإمام في سبق المأمومين، دون التفات إلى ملاحظة كبر الإمام سناً،
إذ قد يكون الإمام فتى أو كهلا أو أشيب، وإن لزم من وراء هذا التشبيه أنها أقوى من النوق
التي خلفتها في الشأن، لسرعة خطاها دونهن، فما لذلك من مدخل في إحياء إلى تقدم الإمام
في العمر، وقد حمد الأدباء في البيت الثاني لأبي نواس إحسانه في المكافأة للمطايا التي
ستبلغهم الأمين، فقد استحققت منه ومن رفقته أن ترفع عنها بعدئذ مشاق الحمل، وتترك طليقة
يقدم لها ما يشبعها وما يرويهها، وتروح وتغدو في الكلاً ما شاءت، وإن أبا نواس منتهج في
ذلك طريقة: أعشى قيس فإنه أول من ابتدعها، وذلك في وعده الجزاء الكريم لناقته في
قصيده التي أعدها لينشدها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ يقول:

(1) البيتان من القصيدة المشهورة التي حسده عليها أبو تمام وعارضها بموازنتها.